تعلمت من حياتي في التعليم *

بقلم الأستاذ محمد فريد أبو حديد

أجلس الآن والشمس تميل إلى الغروب فى ساعة الأصيل ، تحاور السحب البيض التى تحيط بها فى أفق الغرب مثل غزالة تحتوشها ضوارى الصيد . وما أجمل هذا الشاطىء الهادىء الذى تتهادى عليه الأمواج اللازوردية الصافية وتتسابق على الرمال الصفر الباسمة الذهبية .. انه البحر الأبيض المتوسط العزيز الذى ينبض مع قلوب الشعوب العربية المتيقظة للحياة من سورية ولبنان إلى الجزائر ومراكش ، فأنا أسرح بصرى فى زرقة صافية فى أدنى الأفق وأقصاه من فوقها زرقة صافية فى سماء تحنو على الكون من أعلاه .. هدوء شامل وسلام عميق على شواطىء طرابلس ، لا يكاد المرء يحس فيها لنفسه وجودا مستقلا عن الوجود الأعظم الذى يغمره فى طيه كما يغمر البحر العظيم ذرة الرمل فى أعماقه ، وكما يغمر الفضاء ذرة الماء السابحة فى سحابه . وتواردت على ذهنى وأنا فى هذه الحالة من الاستغراق صور من الماضى والحاضر وذكريات من مواقف حياتى فى سهلها ووعرها ووجوه عرفتها أو مررت بها من أصدقاء أعزاء وأبناء أحباء ، واستحال كل ذلك الى عالم واحد يحيط بى غامضا ملهما يتحدث بأحاديث تملأ القلب بالمعانى ، ولكنى لا أميز لها لفظا . كانت سنوات جهاد طويلة تعصف أحيانا وتهدأ أحيانا ، شققتها وخرجت منها إلى سنوات أخرى ما تزال تعصف أحيانا وتهدأ أحيانا .

تأمل وذكريات

وأخذت أتأمل حياتى فى التعليم خاصة وسألت نفسى هل أستطيع أن أحاسبها على ما جنيت فيها من ثمار حلوة أو مرة ، وهل أستطيع أن أجمعها فى نسق واحد كما يجمع الرحالة أشتات ما التقطه فى رحلاته من صور المناظر أو تحف الآثار التى مر بها فى رحلاته . وها أنذا أعرض بعض معالم هذه الذكريات ولا أدرى كيف تقع فى أنظار من يتأملونها ، وأن كنت كلما تمثلتها شعرت بهزات تلك السنوات الماضية تعود إلى فتية قوية تملأ فؤادى بنشوة الشباب .

* مجلة الهلال ، فبراير ١٩٥٦ ، ص ص ٣٨ – ٤٣ .

لقد شاركت فى تعليم ألوف وألوف من الأبناء فى عهود مختلفة ، وتحت نظم متعددة ، وكنا نحن المعلمين وتلاميذنا نرضى حينا ونسخط حينا وننجح فى مواطن ونخفق فى أخرى ، ونحاول أن نلقى اللوم إذا أخفقنا على شىء خارج عنا ، كالنظم التى تتحكم فينا أو المناهج التى تحدد ميادين أعمالنا .

ولكنى الآن بعد مضى هذه السنوات أنظر إلى الوراء لهؤلاء الأبناء طبقة بعد طبقة ممن تعلموا فى عهود مختلفة وتحت نظم وبرامج متعددة فأراهم اليوم يقومون بأعمالهم فى الحياة على مثل النمط الذى كانوا يقومون به فى أعمالهم المدرسية .. لكل منهم طريقته فى التفكير ، ولكل منهم أسلوبه فى المعاملة ، ولهذا بدا لى أن النظم والمناهج ما هى سوى وسائل شتى يستطيع كل منها أن يصل إلى الغاية الواحدة ، والعبرة فى التربية انما تكون بالمعلم وتلميذه . هذا هو لب التربية فى نظرى ، انها تنمية للمواهب وتهذيب فى الأسلوب ولكنها لا تستطيع أن تخلق من عندها جديدا . والسر الأعظم الذى يجعل للتربية أثرها هو مقدار ما تبلغ من النجاح فى تحريك عقول الأبناء ومشاعرهم . وبهذه المناسبة يحضرنى مثال من قصة الرجل الذى ذهب الى المسرح ليرى رواية بلغة لا يفهمها . فلما ضاق بقلة فهمه وهو يرى الناس يضحكون ضحكا عاليا لما يسمعون ، قال لصاحبه الذى الى جانبه « اننى لا أفهم لم يضحك الناس » . فقال له صاحبه : « يكفيك أن تضحك إذا سمعتهم يضحكون وانت تجد فى نفسك المتعة ذاتها ! » . فكثير من التعليم لا يزيد على أن يضحك الأبناء اذا سمعوا غيرهم يضحك – أو بقول آخر – يرددون ما يسمعون من غيرهم بغير أن يشعروا فى نفوسهم بشىء يحركها ، وهذا هو السبب فى أن بعض الأبناء يمرون فى دراستهم بغير أن ينالوا منها فائدة سوى أنهم يرددون بعض ما سمعوا .

العنصر الفعال

وعلى هذا أقول أن المعلم هو العنصر الفعال والعنصر الجوهرى فى التربية ، اذكر انى وقفت يوما أناقش أحد أصدقائى – وكان اذ ذاك يشتغل بمقاييس الذكاء – وكنت أعرف أبنائى حق المعرفة ، فاختلفت معه فى تقديره لبعضهم اذ وضعهم مع الخاملين وكنت أعرفهم من المبرزين الممتازين ، كما اختلفت معه على بعض آخر جعلهم من الممتازين بحسب المقاييس التى عنده ، وأنا أعرف مقدار تواضعهم فى الاستعداد الطبيعى . ولم يكن فى ذلك الوقت لدينا ما نحتكم اليه فى خلافنا لأن الزمن وحده هو الذى ينطق بالحكم الأخير على استعداد الناس وذكائهم . والآن بعد مرور هذه السنوات

الطويلة أستطيع أن أقول أن الزمن قد أصدر حكمه ، ودلنى على أن معرفتى لأبنائى كانت أصدق من دلالة المقاييس الوضعية على استعدادهم وذكائهم . فمقاييس العلم إذا أفادت فى اختبار من لا نعرفهم فانها لا تغنى كثيرا فيمن نعرف من أبنائنا . والمعلم الصالح هو الذى يعرف أبناءه فردا فردا . وحكمه عليهم أعظم دلالة وأدق فراسة . ولهذا أقول لزملائى المعلمين أن أول واجباتهم معرفة تلاميذهم كأفراد لكل واحد منهم شخصيته . فالانسان أنفس الموجودات واعترافنا بنفاسته تلقى على المعلمين مسئولية تربيتهم فردا فردا ، كل تلميذ صغير يجلس فى فصله له وجوده وشخصيته وانسانيته ، وله حقه فى النمو الى قصاراه فى جسمه وعقله وروحه وشخصصيته بين لداته ، واغفال فرد واحد قد يؤدى إلى خسارة جسيمة للأمة لأنه قد يضيع عليها قوة جبارة كان فى استطاعتها أن تؤدى أكبر الخدمات لقومها وللانسانية لو بلغت قصاراها من النمو الكامل .

واجب المعلم

وعلى ذكر ما يستطيعه المعلم فى العناية بأبنائه أفرادا ، أذكر حادثة كان لها أكبر الدلالة عندى .. فقد لاحظت أن أحد التلاميذ يتكرر عقابه كل يوم حتى خيل إلى أنه لابد أحد الشياطين المردة . فاستدعيته لأرى من يكون ، وما كان أشد عجبى عندما رأيته صبيا صغيرا لا يزيد على الثانية عشرة أو نحوها ، وكان فى مظهره ما ينم عن النجابة والنشاط ودقة الحس والتهذيب . فحملنى هذا على التحقق من أمره حتى علمت من ظروف حياته أنه لا يجد فى بيته متنفساً لنشاطه ، ولا تتاح له فرصة للأنس الاجتماعى مع رفقاء فى أسرته ، ولهذا كان كلما جاء إلى المدرسة وذهب إلى فصله ، أكثر من التحدث إلى زملائه فيلهيه هذا عن متابعة الدرس ، واذا لها عن درس عجز عن فهم الدروس التالية . فاذا كلف بواجب لم يستطع أداءه . فعنيت بأمره وتعمدت أن أقوم أنا بتعليمه ما تعذر عليه فهمه ، وهو مادة الرياضيات التى لا أتقنها ، فكنت أتعلم الدرس من المعلم ثم أقوم بتدريسه لهذا التلميذ ، فوجدت منه استجابة عجيبة . وشجعه الشعور بأنه قد نجح فى الفهم فبذل الجهد فى تدارك ما فاته وزالت منه عقدة الكراهة لتلك المادة . وفى الوقت عينه أشركته فى جماعات النشاط الرياضى والاجتماعى ، فكان فى أول الأمر نافرا كالأوابد الوحشية ، ثم استأنس الى زملائه شيئا بعد شىء حتى صار من أقطاب تلك الجماعات . وهو اليوم بحمد الله من خيرة رجال مصر علما وخلقا وشق طريقه فى حياته موفقا سعيدا .

فمن أجل هذا أقول أن من واجب المعلم أن يؤدى حق كل فرد من تلاميذه بمعرفته معرفة تامة والعناية به كأنه ولده ، لأن اغفاله اغفال لفرض واجب من أجل حياة نفيسة لها حقها الكامل فى الحياة .

وأحب أن أتواضع وأقول أن المعلم لا يستطيع أن يخلق فى تلميذه قوة جديدة ولا يمكن أن يجعل من القزم عملاقا ، ولكنه بكل تأكيد يستطيع أن يحطم العملاق فيحيله إلى قزم . ان كلمة سخرية واحدة أو عقوبة ظالمة تقع على تلميذ صغير ، قد تكون حدا فاصلاً بين ماضى الصبى ومستقبله . وكم من رجل محطم فى نفسيته وعقليته قد بدأ تحطيمه على أثر خطأ ارتكبه أحد المسئولين عنه كأبيه أو أمه أو معلمه عندما كان ناشئا غض العود ضعيف المقاومة . وكثير من مسالك الشباب المعوجة كالتحدى أو قلة المبالاة بالقيم الأخلاقية أو الاجتماعية وكالاسفاف فى السلوك والمعاملة ، يكون أثرا من آثار أخطاء صغيرة ارتكبها هؤلاء المسئولون عندما كان الشاب طفلاً أو صبيا صغيرا .. حقا ان مثل هذه الأخطاء قليل الحدوث بحمد الله ، ولكنها خطيرة الأثر ونرجو ألا يكون لها وجود بين الآباء والمعلمين .

أثر المعلم فى تلاميذه

وهناك صور مماثلة فى ذهنى إلى اليوم رغم مرور عشرات من السنين عليها ، وهى تدل على أن المثال الذى يضربه المعلم لتلاميذه أبلغ أثرا فى التربية من كثير من المواعظ والدروس الأخلاقية . المعلم للتلميذ الصغير رجل عظيم ، ولذلك كان على المعلم أن يكون عظيما ، وأن يكون له قلب كبير . قمنا يوما برحلة إلى الصحراء ، وكانت معنا معدات الاقامة كالخيام وصفائح الماء ومواد الطعام ، وكلها فى ربط كبيرة ثقيلة . فلما أردنا أن نعسكر اخترنا مكانا عاليا لنكون بأمن من الحشرات أو سيول المياه فجأة ، وأردنا أن نحمل الربط الثقيلة إلى أعلى . وبدأ التشاحن بين الطلاب على أيهم يحمل هذه الربطة أو تلك . فاخترت أنا صفيحة ماء مملوءة ووضعتها على كتفى وصعدت فى سفح التل صامتا بغير أن أنظر إلى ورائى . فاذا صف طويل من الطلاب يسيرفى أثرى وكل منهم يحمل ربطة بغير مناقشة .

فالمعلم الذى يقف أمام تلاميذه يتعرض لعدد كبير من الوجوه فى كل منها عينان تبصران وتلاحظان كل حركة من حركاته وكل تصرف من تصرفاته .. فالأمثلة التى يضربها المعلمون لتلاميذهم تنعكس بغير شك على الحياة القومية بعد بضع سنين عندما يصير أبناؤهم رجالا يوجهون شئون الحياة .

ولست أتردد أن أقول أن قلة ضئيلة من الآباء والمعلمين تضرب لأبنائها أمثلة تدعو إلى السخرية ، واذا كان الأبناء لا يقلدونهم فيما يشعرون أنه يدعو إلى السخرية ، فانهم على الأقل يستهينون بالجيل الكبير وينقدون ذلك الرباط الذى ينبغى أن يكون بين الأجيال من التعاطف والاحترام المتبادل فى الوطن الواحد .

الصداقة بين المعلم وتلاميذه

وهناك مواقف أخرى كثيرة عرفت فيها من تجاربى أن سعادتى كمعلم تتضاعف بمقدار ما أفوز به من الصداقات مع تلاميذى ، وهذا يدعونى إلى أن أقول أن المعلم الصالح هو الذى يعد تلاميذه أصدقاء له . فتلاميذنا وأبناؤنا جيل من الانسانية والفرق بين الكبير والصغير لا يزيد على فرق فى مرحلة النمو التى يمر بها الفرد . ولكن شعور الانسانية والعواطف والكرامة البشرية حق مشترك للجميع مهما اختلفت مراحل الحياة .. فالأساس الذى تقوم عليه علاقة المعلم أو الأب بابنائه هى علاقة الصداقة وأساسها دائما المودة والعطف والتقدير . وليس أبعد عن اللائق بالمعلم أن يقف من أبنائه موقف المعاداة .

أذكر بسعادة عظيمة يوم أسأت إلى أحد أبنائى فى ساعة غضب أو « نرفزة » وما هو إلا قليل حتى شعرت بأننى أخطأت ، فبادرت بالاعتذار علنا لهذا التلميذ كما أسأت إليه علنا . وكان لهذه الدفعة من جانبى أثر عظيم فى تمكين الصداقة بينى وبين تلميذى سابقا وصديقى (حاليا) .

وأذكر مرة أخرى أن أحد تلاميذى قام فى الفصل يجبهنى بعبارات قاسية لأنه ظن خطأ أنى فى بعض مسالكى أتعمد الاساءة إليه . وكنت عند ذلك شابا فى أول عهدى بالتعليم ، فتعجبت لما بدا منه لأنى لم أذكر أننى تعمدت أن أسىء إليه . فلما انتهى من مقالته قلت له : « انى آسف لأنك تجبهنى بهذه المقالة الشديدة ولست أشعر بأنى أسأت اليك ، ولا أنى أردت الاساءة اليك . فانت تظلمنى وتتعدى علىّ ، وأنا آسف لمسلكك وغاضب عليك » ، ثم مضيت فى درسى . فما كان من تلاميذى إلا أن صمتوا صمتا عميقا ، وما فرغت من الدرس وخرجت حتى بادروا جميعا مع زميلهم للاعتذار وبالغ الطالب فى اظهار أسفه وما يزال هذا الطالب صديقا كريما أعتز بصداقته . ولو كنت وقفت منه موقف المعاداة لتمادى هو فى ميله للتحدى ، ولخسرت أنا صداقة عزيزة ، أعدها من دواعى سعادتى . وكيف نطمع أن يتعلم الأبناء مسلك الكرامة والتهذب فى المعاملات اذا لم يتشربوا هذا المسلك ممن يمثلونه لهم من آبائهم ومعلميهم الذين يحلون عندهم محل الاحترام ؟

كلمة للشباب :

هذه كلها حقائق تعلمتها من تجاربى فى حياتى التعليمية أبسطها لقراء الهلال وفيهم الآباء والمعلمون راجيا أن تقع منهم موقع التقدير والاعتبار ، ولى فى آخر هذا الحديث كلمة أخرى أوجهها للشباب من مواطنى ولاسيما الطلاب الذين يقفون فى وقت من أوقات حياتهم مترددين فى اختيار الطريق الذى يسلكونه فى مستقبلهم . فقد وقفت مثل هذا الموقف فى أيام شبابى ، وكنت أحلم بأن أكون من رجال القانون متأثرا بمؤثرات عدة ليس لها علاقة بما أنسه من ميولى واستعدادى الشخصى ..

كنت أحلم أن أكون مثل بعض أهلى الذين يشتغلون بالقانون وهم فى نظرى أمثلة لما أطمح إليه فى حياتى من النجاح والمكانة الاجتماعية ، وكنت أميل إلى أن أزامل بعض أصدقائى الأعزاء الذين اختاروا دراسة القانون ولكن ظروفى الخاصة لم تساعدنى على الدخول فى مدرسة الحقوق ولم أجد أمامى إلا مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا كاره ، حتى لقد تمنيت فى بعض أيامى بها لو سنحت فرصة تضطرنى إلى مفارقتها .

واعترف بأننى كنت فى بعض الأحيان اندفع مع شعورى الكامن وأثور ثورات تستحق أن أفصل من أجلها من المدرسة ، وكان الفضل فى التجاوز عنها لأستاذى الرجل الطيب النبيل المغفور له اسماعيل حسنين (باشا) ناظر المدرسة .

ثم عوضت عما فاتنى بعد تخرجى فى مدرسة المعلمين ، ودرست القانون (من منزلى) وحصلت على الليسانس المرموق بعد حين . ثم وقفت أفكر فى الاختيار بين التعليم الذى اشتغلت به بضع سنوات ، وبين القانون الذى كنت أحلم بالاشتغال به منذ صباى وعند ذلك تبينت لى الحقيقة وآثرت البقاء فى التعليم ، لأننى كنت قد انست إليه وتعلقت به ، واتضحت لى حقيقة ميلى إليه .

ومعنى هذا أن كثيراً من الشباب لا يختار مستقبله لما يشعر به من حقيقة ميله واستعداده لدراسة بعينها ، بل يكون فى الأغلب متأثرا بدوافع أخرى لا علاقة لها بميله الحقيقى ، فأغلب الظن أن المرجح فى نظر الكثيرين هو مقدار ما ينتظر من المكسب ونظرة الناس إلى مكانة المهنة وغير ذلك من المقاييس التى تتصل بالغنى زو الحظوة الاجتماعية .

وأحب أن أبادر فأقول أن الحياة علمتنى أن المكاسب المادية والمكانة الاجتماعية لا تتوقف على مهنة بعينها دون الأخرى ، فالعبرة دائما بأن يكون صاحب المهنة فى الصف الأول مكينا فى فنه . وما أحقر المهنة أيا كانت فى يد من لا يقدرون عليها !

فليعلم الشباب أنه لا توجد فى الحياة مهنة شريفة وأخرى حقيرة ، بل كل المهن شريفة ما دامت تقوم بخدمة المجتمع . وانما الذى يوجد فهو فرد يستحق التشريف وآخر لا يستحقه . وأحرى بشبابنا أن يستشيروا ميولهم ومقدراتهم عند اختيار مهنة حياتهم .